الفتاة التي تريد أن تصبح امرأة

لخضر لخذاري

كان هناك منزل يقع في حدود قرية صغيرة مسالمة، تعيش فيه أسرة مكونة من أب وأم وفتاة في السادسة من عمرها اسمها ياسمين. كانت ياسمين مولعة بأدوات التجميل التي تستعملها أمها، وكانت تقوم كلّ مساء بارتداء أحد أزواج أحذية السهرات الخاصة بها، وترش العطر في الثوب بعد أن تملأ وجهها بما تجده من مساحيق التجميل. ثمّ تبدأ بالتبختر والمشي كأنها فتاة أرستقراطية.

حملقت الأمّ في الفتاة: "ياسمين! كفّي عن العبث، ستفسدين مساحيق تجميلي!"

ردّت الفتاة ملوحة بيدها وهي مغمضة العينين: "سيدة أمي، أنا فتاة من طبقة راقية لذا لا تقلقي فأنا أجيد استعمال.." وقبل أن تكمل كلامها صرخت الأم في غضب وبدأت تطاردها في أنحاء المنزل.

"أبي! النجدة!" استنجدت الفتاة بوالدها الذي كان يضرب بكفّ على كف في يأس. لم تجد ياسمين بدّا من الهرب إلى خارج المنزل آملة في أن تفقد أمها الرغبة بمطاردتها. وبالفعل، توقفت الأمّ عن المطاردة وتغيّر غضبها إلى خوف: "ارجعي إلى هنا يا فتاة، الظلام دامس! افعل شيئا يا رجل!"

قام الزوج من مقعده بكسل وهو يتمتم: "وكأنها لا تعلم إلى أين تذهب عادة.." ثمّ تكلّم بصوت مسموع: "من المؤكد أنّها عند بيت الشجرة الصغير."

اتّجه الرجل إلى بيت الشجرة المجاورة لمنزلهم وهو ينادي بصوت عالي.

في هذه الأثناء كانت ياسمين تجري باتّجاه آخر إلى أن تعثّرت وسقطت: "لا!!" أمسكت فردة حذاء وأخذت تتفحّصها في حزن وهلع: "الحذاء! لقد كسر كعبه.." ثمّ بدأت بالبكاء.

"ما هذا الضجيج؟ بواق" إنّها الصخرة التي تعثّرت بها! لا. في الواقع كانت مجرد علجوم عجوز. نظرت الفتاة في دهشة إلى العلجوم للحظات ثمّ بدأت بالبكاء بصوت أعلى. وضع ذلك الكائن يديه على أذنيه وقال: "تتصرفين كأنّك رأيت علجوما يتكلّم!"

بعدها تنهد، وبدأ بالعبث بلحيته وهو يقوم بتهدئتها: "اهدئي يا فتاة أنا لست بتلك البشاعة.. اهدئي وأخبريني عن سبب مجيئك إلى هنا في هذا الوقت من الليل."

خفّ صوت بكاء ياسمين وبدأت تشرح له: "كنت فقط أحاول التصرف مثل امرأة، لذا استعرت حذاء أميّ وأدوات تجميلها. لكنها غضبت اليوم وطاردتني، فتعثّرت وسقطت فكسر حذاؤها. وها أنا هنا مع هذا العجوز القبيح!"

لم يشعر العلجوم بالإهانة، لكنّه اصطنع الإستياء: "لو لم تقومي بإهانتي الآن لكنت أصلحت الحذاء، ولكنت حولتك إلى شابة جميلة. لكنّك تسرّعتِ وقمتِ بوصفي بالعجوز القبيح. بواااااق." ثمّ استدار وتظاهر بالمغادرة.

توقفت ياسمين لبرهة لتدرك أنها كانت تكلم علجوما سحرياً، ثمّ أسرعت باللحاق به وهي تتوسّل المغفرة.

توقف ذلك الكائن الدميم وعلى وجهه علامات الرضا: "أفهم من هذا انك تحاولين الإعتذار يا فتاة، صحيح؟"

هزّت ياسمين رأسها بسرعة علامة على الموافقة. وضع العلجوم يده خلف ظهره، ثم شرع بالعبث بلحيته مجددا بالأخرى وقال وهو يفكرّ: "وأفهم ايضا أنّك تريدين أن تصبحي فتاة بالغة، صحيح؟"

وكما هو متوقع، فقد هزّت رأسها مجددا وهي تضمّ يديها الصغيرتين دلالة على الموافقة.

"حسناً إذا، لكن يجب أن أقول أنّ ما تقدمين على فعله ليس بالأمر الجيّد وقد يكون له عواقبه."
ياسمين كانت متحمّسة جداً لأن تصبح فتاة كالأميرة، لهذا لم تدرك نفسها إلاّ وهي تصرخ: "أسرع!"

"استعدّي إذا." بدأ العلجوم بالتلويح بعصا صغيرة وهو يقول: "تحولي من فتاة صغيرة تشبه الفطيرة، إلى فتاة شابة تشبه البدور المستديرة. بوااااق."

كانت الدّهشة تحيط بياسمين مثلما تحيط بها تلك النجوم الملونة الصغيرة التي خرجت من العصا السحرية، ثمّ بدأت بالتغير تدريجيّا إلى أن أصبحت فتاة مكتملة القوام والجمال والأنوثة. وقد أصبح الحذاء المكسور جديدا.

لم تصدّق نفسها، كان الأمر جميلاً جدا ليكون حقيقة، ولتتأكد من أن ما حدث لها ليس وهما، قامت بقرص العلجوم، فصرخ من شدة الألم: "ما الذي تفعلينه يا صبية؟!"

"أنا لا أحلم.." قالت بهدوء، لكن سرعان ما بدأت بالجري باتّجاه منزلها وهي تصرخ: "هذا حقيقي.. هذا حقيقي!"

حمل العلجوم الحذاء وبدأ بالصراخ: "لقد نسيتي الحذاء!" ثمّ وضعه وتنهد: "شباب هذه الأيام."

صفقت الباب ودخلت مسرعة، قالت الأم دون أن تنظر إلى القادم: "هل وجدتها يا زوجي؟" لكن الزّوجة لم تسمع أيّ رد، لهذا التفتت إلى الشخص القادم، لترى أمامها شابة تنظر إلى أنوثتها في انبهار شديد. وقبل أن تقول الزوجة شيئا دخل الزوج وهو يقول: "لم أجدها هناك، يجب أن يقوم كلانا بالبحث عنها."

"أمّي! أبي!" كانت ياسمين تنادي وهي مندهشة وفرحة: "هذه أنا، أنظروا كم كبرت وأصبحت جميلة! لقد كنت أركض ثمّ تعثرت وقابلت عجوزا صغيراً قبيحا فقام بتحويلي إلى ما أنا عليه الآن وقد أصلح الحذاء.." ثمّ توقفت لحظة لتفكّر في ما قالت: "الحذاء."

سقطت الأم أرضاً مغشيا عليها.

"زوجتي هل أنت بخير؟"

"من الواضح انّه أغمي عليها بسبب المفاجأة يا أبي، أعني.. أنظر إلي!"

كان الوالد والابنة بجانب السرير الذي تنام عليه الأم، التي استفاقت فجأة ونظرت إلى زوجها: "إنه ذلك العلجوم السحري!" هزّ الزوج رأسه موافقا وهو غارق في التفكير. بعدها التفت إلى ابنته التي لم تتوقع أنّ والديها يعرفان بأمره مسبقاً ثمّ قال: "إذا فقد كانت أمنيتك أن تكوني شابة. بالتأكيد كان هذا متوقعا."

بعد أيام قامت عائلة الزوج بالذهاب إلى حفلة في أحد منازل القرية، وقد قامت ياسمين بالاختلاط ببعض الفتيات. في البداية كانت تتصرف مثل أميرة، إلى أن مرّ الطفل سامر يحمل صينية حلوى المشمش التي تحبها. قامت بالصراخ وهي مبتهجة: "سامر، لنأخذ كلّ الحلوى إلى بيت الشجرة، هيا!" ثمّ أمسكت الصينية وهربت إلى الخارج وتركت الطفل المسكين مذهولاً. بعدها توقفت في الخارج منادية: "سامر، ما الأمر؟" لكنها فطنت فجأة وأدركت أنها لم تعد فتاةً صغيرة فاحمر وجهها خجلاً. وفي صباح اليوم التالي، دخلت الأم باكراً إلى غرفتها لتقوم بإيقاظها لتساعدها في أشغال البيت: "ياسمين، استيقظي! أنت امرأة بالغة الآن، يجب أن تهتمي بشؤون المنزل!" ثمّ رفعت الغطاء عنها بقوة: "استيقظي يا فتاة!"

لكن ياسمين ضمت دميتها الدب إليها وتكورت في الفراش. إلاّ أنّ محاولة التّصرف كطفلة صغيرة لم يعد ينفع، فبعد بضع دقائق كانت تكنس وتغسل أواني البيت شبه نائمة: "هذا ليس ممتعاً." نظرت إليها والدتها بامتعاض وهي تضع يدها على خصرها: "أنت امرأة، لذا يجب أن تفكّري مثل امرأة."

فكرت ياسمين فيما قالته والدتها ثمّ سألتها: "لا تلعب النساء إذا؟ لماذا؟" تأففت الوالدة باستياء وزمجرت: "لو لم تتسرعي وتكبري بشكل غير طبيعي لاكتشفتي لماذا." ثمّ كأنها تذكّرت شيئا: "نعم، صحيح! وانسي ذلك الدب الصغير وكلّ ألعابك!"

هنا، لم تتحمّل ياسمين وبدأت في البكاء بصوت عالٍ. في هذه اللحظة سمعت صوتا من نافذة المطبخ: "لقد قلت لك أنّ لهذه الأمنية عواقب، بواااق." بعدها قام بالقفز إلى المطبخ.

ذهلت الأم لرؤية العلجوم وفرحت الفتاة: "العجوز القبيح!" ثمّ أسرعت إليه وراحت تشتكي: "تقول أمّي أنّ اللعب لا يناسب الفتيات الكبيرات وأنا لا أريد أن أفارق ألعابي." ثمّ راحت تفكّر: "وأريد ان أنام ودبي الصغير دائما في حضني."

ثمّ قال وهو يعبث بلحيته: "هكذا إذا. أرجو أنك قد تعلمت درساً مفيداً." ثمّ التفت إلى الأم وقال: "ما رأيك يا سيّدتي، هل أرجعها إلى سابق عهدها؟" عندئذ اصطنعت الأمّ الحنق وقامت بالنفي. غضبت ياسمين، لكن والدتها ضحكت، وقد كانت علامة فهمها العلجوم الدميم فبدأ مراسم إزالة تعويذة الشباب: "عودي إلى سابق عهدك يا فتاة، كما يعود الجمل التائه إلى الفلاة."

رجعت ياسمين إلى حالتها الطبيعية وقد قررت أن تعطي كلّ فترة من حياتها حقّها.